حول كتابة تاريخ الادب العربي

الدكتور نوري حمودي علي القيسي
استاذ في كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لابد ان تثير المناقشات الطويلة التي قيلت بشأن المقولة التي طرحها السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الاستاذ صدام حسين حول كتابة التاريخ ووفق المنطلقات التي حددها ، والاتجاهات التي رسمها ، لا بد ان تثير في صفوف دارسي الادب العربي ، والمهتمين به ، والعاكفين على بحثه بعض المسائل ، ولابد ان تأخذ ابعاد الموضوع التاريخي ابعاد الموضوع الادبي لانهما يمثلان رافدا واحد ويصبان في مجرى واحد ، ويحملان من المضامين ما يعين الامة على التوجه السليم بعد الانتفاع من تجاربها في كل مجال ، والاستفادة من خبرات ابنائها في كل زمان ، ويعزز ايمانها بالارادة الخيرة التي تلمسها في كل عمل ، وقدرتها على الانبعاث ويرفد حاضرها ومستقبل اجيالها بتراث مجيد ، ظل بعيدا عن الدرس ، غائبا عن الممارسة ، محشورا في مواقع الاستشهاد غير المناسب ، ويعمق اعتزازها بالمساهمة المبدعة التي عرفتها في ضروب ادبها ، وفنون بلاغتها ، وبراعة انسانها ، والمشاركة الخلاقة التي قدمتها حصيلة خيرة الى كل الامم والشعوب من اجل صنع الحضارة الانسانية فكرا وثقافة ، ويجعل من توجهها الانساني توجها يصنع غدها الافضل ويبني المستقبل المشرق .

ان الدعوة الى امتداد تاريخ الامة الى عصور سحيقة في القدم يعمق الايمان بأن ادب هذه الامة وفكرها وتجربتها التي قدمها ادباؤها ومفكروها انما كان تعبيرا عن شخصيتها التي نشأت فوق هذه الارض ، وعبرت عن

طموح انسانها في كل المراحل ، وعاشت في ظلال قدرته التي كانت تتجلى في نماذجه استجابة لمتطلبات الحياة ، وتجسيدا للتحديات التي جابهت الامة عندما كانت تحيق بها نوازع التحدي ، وتتوالى عليها المحن ، وتتكالب من اجل تفتيتها عناصر الشر ، وان هذا الامتداد يعني بناء شخصيتها التي ترتبط بكل ابنائها وتتفق مع كل العاملين منهم في سبيل الوصول الى الواقع الذي يقررونه ، والحياة التي يسعون اليها ، والمكانة التي قدرت لهم ان يكونوا عليها ، وفي هذا الامتداد يتمثل البعد الحضاري المتسع ، والمنجزات الانسانية العميقة التي كانت سمة من سمات هذه الامة ولونا من الوان حياتها في مختلف عصور التاريخ وعبر سلسلة الاحداث التي اجتازتها البشرية .

ان هذا الامتداد التاريخي والقومي الذي يؤكد امتداد التاريخ واللغة والادب ، ويحدد السمات الفكرية التي صاحبت هذه المسيرة تدفع كل الباحثين في اعادة التقييم لكل الاحكام التي قيلت بشأن كثير من الجوانب ، واعادة النظر بكل المقاييس التي ظلت اشكالها الفرضية تأخذ مجالها لتبني عليها النظريات العائمة والاقوال غير المدروسة ... وان هذا الامتداد التاريخي يحدد الملامح الواضحة والاهداف العلمية التي يمكن للدراسات ان تعتمده اساسا في مناهجها من اجل الحقائق التي ظلت مطوية ومن اجل الابداعات الفذة التي طبعتها اعمال اولئك الذين استمرت تجاربهم تحظى بالتقدير على الرغم من الزمن السحيق والانكماشات الكثيرة التي صاحبت المسيرة الانسانية .

ان توجه البحث الى هذه المجالات تدعو كل المختصين من اجل التوجه في البحوث والدراسات الى وضع الخطط الجديدة والتحليلات الايجابية للظواهر التي ظلت اساليب التفسيرات السلبية تؤثر فيها وتوجه تياراتها توهجاً يفقد النص الادبي قدرته ، ويميت ابداعه ، ويقتل كل الامكانات التي عانى الادب من اجل انشائها .. على ان يظل هذا التوجه مقرونا بالرؤية الجديدة في تحليل الحدث ، والقراءة الواعية لكل الابعاد الواقعية والاحتمالية التي

تحيط به والتفسير المدرك لحقائقه الايجابية التي كانت تمثل الحس الحقيقي والتطلع المشروع للانسان العربي خلال العصور السحيقة او التي تلت تلك العصور ، بعد ان تشفع بالحس القومي الذي يحدد الحركة • فالدراسات الادبية تشكل رافدا حيا من روافد الثقافة ، ونبعا اصيلا من ينابيع اصولها المثمرة التي تمكن الفكرة وتوجه البناء الانساني لانها تمثل الواقع ، وترسم ابعاد المستقبل ، وتثبت نوازع الانسان في مختلف الوان الحياة ، وتكشف عن تصوراته سلبا او ايجابا ، وقد قدمت الدراسات الادبية خلال امتدادها الزمني ومعالجتها الموضوعية في كثير من الاحيان اشكالا من النماذج التي شاركت ــ الى حد بعيد ــ في دراسة الواقع الاجتماعي والانساني والثقافي ، كما استطاعت ان تشخص طبيعة العلاقات واشكال القيم التي كانت تسود تلك المجتمعات ، الى جانب تصوير النزعات النفسية التي كانت تلوح من خلال التعامل الانساني والسلوك الاجتماعي وتحديد العلاقات وطبيعتها اليومية • وقد اصبحت هذه الدراسات مجالا من مجالات البحث في مختلف الاتجاهات لانها عكست واقعا ملموسا ، ورسمت صورا انسانية واضحة وتجلت من خلالها الوان من النوازع • وقد اقترنت هذه الدراسات الادبية بتاريخ الادب ، واصبحت جزء منه ، وارتبطت احداثها باحداثه ، وصورها بصوره فضاقت بينهما الحدود وتعمقت الاسباب ، واتصلت الاشكال حتى خضعت الدراسات الى احداث التاريخ وتأثرت بوقائعه ، وحسبت في اطار سنواته ، وفي حدود عصوره • ولابد ان تكون مضامين هذه الدراسة حافلة بكل ما ينفع ، قادرة على تمثل الصورة باحداثها الواقعة ودوافعها الاساسية ، وافاقها المتوقعة • ان اقتران الحديث عن التاريخ بالحديث عن تاريخ الادب يحدد خطا جديدا للمسيرة ويضع منهجا متقدما من مناهج البحث ويؤكد صورة مشرقة من صور التطلع الى الافكار التي ستنبثق عن هذه الرؤية ، لان الاطار العام الذي احاط بالمنهج هو اطار مستمد من المعطيات الانسانية التي حفل بها

التاريخ وافرزتها احداث الادب ، وهذا يجعلها احداثا لها مدلولاتها في وضع المطامح المستقبلية ولها قدرتها على التعبير عن الحاجات الانية التي تعيش في النفوس ، وتستقر في طبيعة التعامل ، وتدور في اطار العلاقات .

ان المنهج الذي رسم لتاريخ الادب لم يأخذ المطامح المشروعة للامة بنظر الاعتبار ، ولم تبن قواعده وفق الاتساع الشامل لقاعدة النص الادبي الذي امتد في كل مجال ، واتسع لكل احساس ، واستوعب كل فكرة ، ولم ترسم حلقاته لتضم حركة الابداع التي تجلت في الانتاج الادبي وارتسمت في ملامح الصور الفنية التي اضافت الى الادب العربي الوانا من البلاغة ، واشكالا من النسج التشكيلي الرائع ، ولم تعد مناهجه لتحصر في حدودها افاق النماذج والاغراض والفنون التي استغرقت الاحساس بكل مضامينه ، واستودعت الفكر لكل اصالته ونقائه . وقد جر هذا المنهج على تاريخ الادب ما افقده مهمته ، واضاع حقيقته وتركه نهبا لكل اجتهاد محصور ، ودراسة ضيقة ، وتوجيه لا يدرك العمق الحقيقي لمضامينه . فعاشت النصوص وهي تتلوى على ايدي الدارسين تائهة ضائعة ، تتوجه الى غير وجهتها وتفسر بغير حقيقتها ، وتدرس من خلال المفهوم الذي يحمله الدارس وهو في الغالب مفهوم ذاتي لا يراعى الروح الكامنة فيه ، ولا يتمثل الاحساس الذي يعبر عنه .. وهكذا ظلت مطامح الشعراء والادباء والمفكرين تقرأ قراءة بعيدة عن الغرض الاصيل الذي حملته وتفسر بغير المدلولات التي تأثرت بها ، وتحول عن مجراها الذي تحركت فيه الى مجرى هي بعيدة كل البعد عنه ، وهذه ظواهر حملت الادب احكاما قاسمية ، وتعرضت بسببها ـ بعض اغراضه واعماله وابداعاته وفنونه ـ الى ابتسار حاد وتوجهات غير معقولة . واخضعت اتجاهاته لمنطق يختلف عن المنطق الذي حدده له صاحبه ، وهي امور لا يمكن تجاوزها اذا اردنا ان نعرض لكل اتجاه ، او نقف عند كل تيار ، او نحدد خطوات كل مسار ، لان هذه القوالب حشرت تاريخ الادب ، ومعه تاريخ الامة في اطر تقليدية ضيقة واجبرته على ان يقع في حدود هذه الاطر ويستجيب لكل ظاهرة يعكسها التوجه الذي فسر به ، او حصر في نطاقه . حتى اوشكت

ان تذوب كثير من ملامحه واصوله في مظاهر التقليد ، واندثرت اشكال فنونه في امتداد الزمن المفروض ، واختزلت كثير من الاحداث والمؤشرات في خضم السرد الضائع ، والحديث المكرر واختير من الاحداث في بعض الفصول ـ الضيقة والبائسة • واقحم على الاحداث ما ليس منها ، واضيف اليها ما يذوب رونقها ، ويشين صفاءها ، ويبهت اشراقها حتى اصبحت الوقائع سببا من اسباب التخاذل في التاريخ ومجالا من مجالات النفور والابتعاد في تاريخ الادب •

ان المحاولات الاخيرة التي استهدفت دراسة التاريخ والاراء الكثيرة التي قيلت بشأنه والمعالجات التي وضعت الحدود الاساسية لما يجب ان يدرس منه وما يجب ان يبرز من احداثه وما يجب ان يؤكد عليه تمثل التحرك الجديد الذي سيعطي لتاريخ الامة وجهه الحقيقي ، وتمثل التوجه الصائب في اليقظة الفكرية التي يجب ان يضطلع بها المفكرون والمثقفون في الربع الاخير من هذا القرن لتتمكن الامة من اعادة النظر في بناء كثير من مكوناتها التي بقيت ترسم لمسيرتها خطها غير الحقيقي وتوجه اجيالها الوجهة غير الصائبة وتمكن في نفوسهم عوامل الضعف والتدهور والتخاذل وتغذي روافد الانقسام ومسارب التمزق •

ان هذه المحاولات التي بدأت تأخذ مجالها في الوسط الجامعي وحجمها في عملية التأليف الواسعة في اطار المناهج المدرسية المقررة لا يمكن ان تكون بمعزل عن دراسة تاريخ الادب ودراسة الادب الذي ارتبط بالتاريخ واشترك في كثير من احداثه عاملا مؤثرا ومتأثرا ، فاعلا ومتفاعلا لتتمكن الدراسة الادبية ان تعيد لاصولها ما فقدته ولنماذجها الانسانية ما حاولت ان تصل اليه ولرغبات الامة ما سعت اليه بكل وسائلها •••

ان وضع الخطوط العامة لهذا المنهج ، ورصد الظواهر التي تبرز من خلال المواقف القومية والانسانية ، وتحليل الاحداث والصور التي تعبر عن الجوانب الاخلاقية الرفيعة المرتبطة بخصائص المجتمع العربي ، والمنبثقة من

حاجاته الحقيقية تشكل الخط السليم لاعادة النظر في كل المناهج المدرسية التي عالجت الموضوع وفي كل الصيغ التي كتبت بموجبها الاحداث ، وفي كل التوجيهات التي فسرت في ضوئها الوقائع وان توحيد هذه الجهود وتنسيق العمل من اجل اعادة النظر في الموروث التاريخي الموثوق ، والموروث الادبي الاصيل الذي اخضع لقواعد التدقيق والتحقيق تعطي هذا الموروث قدرته على العطاء وتمكنه من القيام بدوره في تحليل تجارب الامة ودراسة مواقع الانتصار وعوامل الاندفاع ، ومواقف التحدي كما انهاتضيف الى تجربة الامة تجارب الاجيال الماضية التي خاضت امثال هذه التجارب فتجاوزتها وعاشت بعض الاحداث وتمكنت من عبورها بعد ان هيأت لنفسها ولجماهيرها ما يمكنها من هذا التجاوز ويعاونها على ذلك الانتقال .

ان هذه القدرة تؤكد في نفوس الاجيال ايمان اجيالها بما قدرت على تحقيقه وتزرع في قلوبهم حب الامة التي انجبت تلك القدرات وشاركت في خلق هذا التراث الخالد الذي ظل طوال حياته موضع اعجاب ومجال اعتزاز وصفحات تقدير لا يدانيه تقدير .

يقترن الحديث عن تاريخ الادب بالحديث عن الادب نفسه لان الادب تعبير عن كل ما قدمه الانسان في صياغة لغوية ومحاولة ايصاله الى الاخرين عن طريق فن من الفنون او شكل من الاشكال وقد تضيق دائرة الادب فتظل محصورة في اطار الشعر وفق معانيه الواسعة او تتسع لتضم ضروبا اخرى تحمل المعطيات الفنية او تتضمن القوالب اللغوية التي تحتفظ مضامينها بتلك المعطيات . اما تاريخ الادب فيشمل كل العلوم التي تقدمها الامة وهي تفكر وتحس وتجرب وتعاني وتعبر وهي تمارسها من خلال حياتها الادبيه والعقلية منذ نشأتها وتطورها وترجمة حياة ابنائها الذين عرفوا في شتى المجالات وساهموا في كل ضروب المعرفة ، وقد يتجه بعض مؤرخي الادب الى الوقوف عند الشعراء والكتاب ، محاولا ترجمة حياتهم وبيان العوامل المؤثرة فيها والاسهاب في شرح الاتجاهات الادبية التي سادت العصر او انتشرت فيه

والانسياق وراء الخصائص التي برزت من خلال الاحداث للارتكاز عليها في البحث والاستشهاد بها عند التدليل والانتفاع منها عند الاحتكام وقد تستهوي بعض المؤرخين جوانب محددة فتملك عليهم نواصي التحديد وتخضعهم لعوامل التاثر وتحملهم على الاستفاضة في بعض المجالات استجابة لتأثيرات خاصة وتلبية لاحتياجات تستدعيها عوامل المنهج او توجبها نزعة الدراسة • وهذا الاتجاه من حيث التوزيع ووفق هذه المواصفات لم تكن له مقدمات في ادبنا القديم ولم نجد له جمعا او تشكيلا بهذه الصيغة التي تناولتها كتب تاريخ الادب التي الفت في الفترة الاخيرة •

ان سيطرة العلوم الطبيعية واعتماد البحث التجريبي وخضوع بعض مؤرخي الادب لهذه العوامل دفعهم الى الاستعانة بتلك المناهج وحملهم على استخدام قواعدها في الدراسات الادبية وقد اوغل بعضهم في هذا المجال ايغالا متطرفا فدعا الى اخضاع الادب الى القوانين وحصره في دائرة الضوابط والزامه بالمقاييس الدقيقة التي تلتزم بها بقية العلوم •• وفي الجانب الاخر من هذا الميدان اتجه (سانت بيف) الى دراسة معاصريه من الكتاب واستقصاء مظاهر حياتهم المادية والعقلية والاخلاقية والعائلية لتحليل ما ينفرد به الاديب وما يشترك فيه مع غيره من الادباء ، ومثل هذا المنهج يمكن تطبيقه على المعاصرين وكتاب العصور الحديثة ، اما القدماء الذين لم تصلنا عنهم عادة الا صور ناقصة او كما يقول (سانت بيف) نفسه تماثيل مهشمة ، فليس من السهل ان تسعفنا المعلومات اللازمة لذلك [1] وذهب (تين) الى اخضاع الادب عند كل امة الى ثلاثة قوانين هي الجنس والزمان والمكان ، وبهذا يحول هذا الناقد تاريخ الادب الى ضرب من التاريخ الطبيعي لانه اخضع ادباء كل امة من الامم الى هذه القوانين خضوعا جبريا • واكد ان لكل جنس خواصه ولكل زمان احداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية • ولكل مكان ميزاته الاقليمية والجغرافية وتلك هي مؤثرات الادب[2] • ان هذه المقاييس

---

(١) د . محمد مندور ـ في الادب والنقد / ٦٥

(٢) د . شوقي ضيف ـ تاريخ الادب ـ العصر الجاهلي / ١٢ .

على الرغم من قبولها باعتبارها مظهرا من مظاهر النقد التي تحدد بعض الملامح الفنية فانها تتجاهل شخصيات الادباء وتقتل مواهبهم وتميت اصالتهم وتضعهم في طبقة واحدة وتحشرهم في دائرة متشابهة وتزيل عنهم كل الخصائص الفردية التي عرفوا بها • وفي هذا الاتجاه تتساقط كل الاشكال الادبية والقـــدرات الفنية التي يتميز بها اديب عن اديب ويفاضل في خصائصها شاعر على شاعر • والى جانب هذين الاتجاهين ظهر اتجاه ثالث يميل الى اخضاع الانواع الادبية الى التطور والنمو كما تتطور الكائنات الحية ، واوغل هذا البعض في منهجه حتى ذهب الى ان الفنون الادبية تتولد من بعضها كما يتولد الكائن الحي • ومن الطبيعي ان تتباعد الطرق بهؤلاء وتتشابك الدراسات وتضيع في زحمة هذه المسالك الخصائص الادبية التي طبع بها الادباء ، ومن الطبيعي ايضا ان تنحسر هذه الفورة الطاغية التي اخذت بخناق الادب ودفعت به الى فصائل لم يكن منها ويتراجع اولئك الذين ساروا في هذا الدرب الى المدى الـــذي حال دون اكمال مسيرتهم بعد ان وجدوا انفسهم قد ابتعدوا عن الحقائق التي تحملها مضامين الادب ، وبعد ان ادركوا ان الصورة الادبية والنص الادبـــي الذي تجمعت فيه عناصر الاحساس وتألق في ثناياه وضوح التعبير الفني الجميل واتجهت اغراضه الى معالجة الواقع الانساني الذي ترزح تحت اعبائه الملايين من البشر قد تحول الى علم من علوم الطبيعة يخضع لتأثيراتها وينتهي عنـــد حدود تعريفها وتتوقف دفقات الاحساس واشكال الجمال فيه في نهايـــات الضوابط التي رسمتها تعاريف هذا العلم او اخضعتها نهايات الفصائل والاسر والمجاميع التي حشر فيها حتى تحولت الفاظه الى دلالات علمية بحته وتبدلت اشكاله الفنية الى مستحدثات علمية غريبة وبعيدة عن كل لون من الوان فنه الجمالي •• ان هذا التراجع الذي بدأت اشكاله تتناهى في حدود فترة اوائل هذا القرن كانت تمثل الاستجابة الحقيقية لازدهار العلوم الانسانية ولتنامي حركة الاحياء الجديدة التي شهدها هذا القرن من جهة والى الحاح الجماهير التي كانت تجد في الادب صورة من صور التعبير عن ذاتها وواقعها ونموذجـــا من نماذج التشخيص الدقيق لما تعانيه من بؤس وتمارسه من نضال ، وتطمح

اليه من اهداف من جهة اخرى كما انها وجدت ان تلك الاجتهادات قد ابعدت عن دائرته وحصرته في دوائر القوانين الجامدة والحدود الضيقة وقتلت في اوصاله روح التعبير واماتت بين تراكيبه نوازع التجديد والانطلاق والتقدم .

ان استمرار مناهج دراسة تاريخ الادب في حدود الاتجاهات الثلاثة التي وقفنا عندها ونزوع المؤرخين الى تطبيق هذه المناهج التي ظهرت في اوربا على تاريخ الادب العربي قد وضعت هذا الادب في اطار تجربة بعيدة عن تجاربه واخضعته لمرحلة لم يكتب له ان يمر بها ، واحكام لم تخصص له ، وقوانين لم يعرفها في مجال تطوره ، واسر لم تتحدد اشكالها في طبيعة تأليفه ، فجاء التناقض بين الاطار والمضمون واضحا ، والاختلاف بين التقليد والاصالة متميزا وكتب على ادبنا الذي لم يعرف هذه الضوابط ان يقع ضحية التقليد وكتب على شعرنا ونثرنا وفكرنا ان يخضع لدوائر مغلقة حددت اقطارها لغيره ، وثبتت مراكزها لما يناسبها .. وقد اكد المستشرق الالماني بروكلمان هذه الحقيقة حيث قال « ان تاريخ الادب العربي سيبقى غير كامل اذا اردنا ان نخضعه لقيود الثقافة الحديثة واقتصرنا على النظر الى الشعر وحده[٣] . فالشعر العربي لم يكن القناة الوحيدة التي احتوت الفكر العربي ولم يكن الوسيلة الوحيدة للتعبير ، ولم يملك قدرة الدلالة في التعبير الانساني وانما كانت هناك وسائل كثيرة تجاوزته وتعددت اشكالها واختلفت فنونها وان اللغة العربية لم تقتصر على محيط واحد ولم تتحدث بها امة واحدة وانما تحدثت بها أمم كثيرة واستعملتها اقوام مختلفة فهي اداة كل ثقافة وحضارة وفي المدى الواسع الذي انتشر فيه العرب واختلطوا مع تلك الاقوام .

ان دائرة الثقافة كانت تضم كل الظواهر وتدخل كل الاشكال الادبية واللغوية وان محاولة الاقتصار على فن واحد او نمط واحد يعني ابتسار الجسد الكامل وتقطيع الاوصال وتمزيق البناء المتحد ، وان هذا الابتسار والقطع والتمزيق سيبعد اشكالا كان عليها ان تدخل ويعزل انماطا

---

(٣) بروكلمان ـ تاريخ الادب العربي ٣/١ .

كانت تشكل شرائح حياتية نافعة ساهمت الى حد بعيد في الكيان الانساني والواقع الثقافي والحيز الاجتماعي وقد ادت دورها وفق الاحداث التي كانت تقتضيها وحددت مهمتها في مجال التداخل الذي استطاعت أن تؤثر فيه ، وفي الاقدار المناسبة التي استلزمتها الحاجات الملحة .

ان هذه الابعاد الادبية واللغوية والثقافية والفكرية والتربوية تشكل الحلقات المتلازمة التي تكاملت في اطار الحضارة التي عرفتها الامة وساهم فيها الابناء والتقت في حدودها عوامل التواصل ، ومن الطبيعي ان تكون هذه الابعاد خاضعة للخصوصيات الذاتية التي عرف بها اصحابها والخصوصيات العامة التي ولدتها ظروف الحياة وطبيعة التعامل ونزعة العلاقات السلوكية والاجتماعية التي يختلف مداها في كل مجتمع وتتباعد اثارها في كل بيئة ، وتتميز سماتها عند كل امة الى جانب المؤثرات البيئية التي يعيش فيها الفرد والمؤثرات الاقليمية التي تضفي على كل امة خصائصها وتكسب ابناءها لونها الطبيعي ونكهتها الانسانية المتميزة .

ان حالة الادب العربي بكل المضامين التي يحتويها والاشكال الفنية التي يعالجها وضروب الكتابة المتعلقة بالثقافة العربية وفكرها لا تسمح بكتابة تاريخه بالمعنى الذي طبق عليه ، ولا تبيح لكل الدارسين ان يقحموه في هذا المدخل الصعب الذي جر عليه من التجاوز ما افقده قدرته على العطاء واطفأ في عيونه كثيرا من الشموع المتألقة ، والوى فوق شفتيه روائع فنية لها بهجتها ورواؤها ونظارتها .. حتى غدت فنونه خاوية وتجاربه محدودة وابداعات شعرائه وكتابه ومفكريه مقتصرة على نفر دون اخر ثم ضيقت حدود هذه الدوائر فاقتصرت على مجاميع اقل ، وفنون اوجز وملامح اخف اشراقا لان النظرية التي استعيرت له لا تنسجم مع اطرافه المتشعبة ولا تستطيع ان تستوعب حدود قدرته ولا تتمكن من ان تمتد الى شوارده التي عبرت عن كل دقيقة من دقائقه وشملت كل حقيقة من حقائقه وعالجت كل جانب من جوانبه وان هذه النظرية او النظريات قد اعدت لغيره وفصلت لاشكال غير

اشكاله ، واحبكت اجزاؤها لتكون قادرة على استيعاب ما هو قادر على الدخول في اطارها وان هذه النظرية قد فصلت لاجناس من الادب لم تتولد في الظروف التي ولد فيها ادبنا واعدت لتطلعات لم يتجاوزها ادبنا واخضعت لقوانين ونظريات كانت اصداؤها واسعة الانتشار والاستجابة لها واقعة في نفوس المتابعين والباحثين في البيئة التي استطاعت هضم هذه الافكار . اما الادباء والمفكرون فكانوا قادرين على الدخول في هذه التجربة وكانوا مهيئين للتفاعل معها ، ومدركين لابعاد كل تحليل من تحليلاتها وداعين لكل تقسيم من تقسيماتها وحريصين على المواصلة في كل درب من دروبها لانهم كانوا في مرحلة بدأت فيها الاتجاهات تتحدد والاشكال الادبية تتضح والحدود النقدية تأخذ دورها في وضع الحدود ، والضوابط الفنية ترسم لكل اتجاه ابعاده التي يمكن ان تشكل مدرسة واضحة ولونا متميزا ومجموعة تلتزم بما يوحد مسيرتها ويوفق بين اشخاصها في العمل .

ان كل الدلائل التي وقفنا عليها من خلال متابعتنا لكتابة تاريخ الادب تؤكد ان تاريخ الادب العربي لم يكتب بالشكل الذي نراه او ندرسه الا في فترة متأخرة وان اول محاولة لتقديم هذا الشكل وفي اطار هذا التقسيم كانت في حدود سنة (١٨٥٠ ــ ١٨٥٦) وان الذي قام بهذه المحاولة هو يوسف هامر بورجستال وان هذه المحاولة جرت ولم تكن مصادر هذا التاريخ قد توفرت ، وان المراجع الاساسية في هذا الفن لم تكن معروفة الى جانب جهل هذا الرجل بالعربية وفق الشكل الذي يحقق له الاقدام على مثل هذا العمل وفي ظل هذه الفكرة وفي مجال واسع مثل هذا المجال وقد فتحت هذه المحاولة افاق العمل امام كل الذين جاءوا بعده وسلكوا مسلكه واتجهوا بدراسة تاريخ الادب هذا الاتجاه .

وقد يلاحظ الدارس لتاريخ الادب ان الاوليات الاساسية التي وضعت في هذا المجال كانت بدايات غريبة عن واقع الادب العربي وبعيدة عن الظروف التي نشأ فيها . فالادب ارخ من خلال كتب الطبقات والشعراء كطبقات

فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز وقد وضع كتاب ابن سلام قواعد محددة لمفهوم الطبقة اعتمدت الجودة والكثرة والتزمت بمقاييس نقدية سادت العصر فكانت اساسا لوضع الشعراء في المجالات التي حددها وكانت مقاييسه تذكر من خلال مضامين الكتاب فقد ذكر ابن سلام العرب واشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها واشرافها وايامها واقتصر من ذلك على مالا يجهله عالم ولا يستغني عن علمه ناظر فبدأ بالشعر وفصل الشعراء من اهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وادركوا الاسلام فنزلهم منازل واحتج لكل شاعر بما وجد له من حجة وما قال فيه العلماء واقتصر من الفحول المشهورين على اربعين شاعرا فالف من تشابه شعره منهم الى نظرائه فوجدهم عشر طبقات اربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين ثم اقتصر بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من اهل العلم الى رهط اربعة اجتمعوا على انهم اشعر العرب طبقة[٤] .

وهذا يعني ان ابن سلام نظر في الشعراء المشهورين المعروفين من اهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فاقتصر على ما لا يجهله عالم بامر العرب ثم بدأ بوضع المنازل المحددة وبعدها باشر باصطفاء الشعراء المشهورين ثم عاد ثالثة لاختيار الفحول الذين حددهم باربعين شاعرا ثم انتهى في تمييز شعرهم الى عشرة ضروب او مناهج سماها طبقات ، ثم عاد خامسة فألف من تشابه شعره منهم بعد الفحص والرواية عمن مضى من اهل العلم انهم اشعر العرب طبقة فجعل كل اربعة منهم طبقة متكافئين معتدلين ونبه على أن تقديمه اسم واحد منهم على صاحبه ليس له حكما بالتقدم على من يليه في طبقته فهم جميعا سواء ، ولكن لا مناص من ان يبتدىء باحد هؤلاء الاربعة فابتدأ به غير مقدم له على اصحابه[٥] .

---

(٤) ينظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام (الصفحات ٣ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٩ ، ٥٠)

(٥) تنظر مقدمة طبقات فحول الشعراء ص ٢٥ .

فابن سلام في كتابه راعي الواقع الادبي والمقاييس النقدية واخذ بنظر الاعتبار الاحوال والاوضاع والبيئات والفروق الفردية والتميز الابداعي والجودة والنفس الطويل الذي عبر عنه بالكثرة .. وهذه احوال حققت له النجاح ووضعت نظريته في موضع الواقع بعد ان ادرك باستيعاب خصائص المجتمع ووعى الطابع الذاتي للامة . وادرك البنية الحيوية والتركيب النفسي لكل حالة من احوالها وفي ضوء ذلك رسم منهجه وحدد طريقته واعتمد اصوله وهذا ما جعلها طريقة ثابتة الى حد ما ، ومقبولة في القياس النقدي وكفيلة بوضع الاسس والضوابط التي تحفظ لتراث الامة قدرة الاستمرار وسلامة التقييم ووضوح الملامح .

اما ابن قتيبة (٢٧٦ للهجرة) فقد ضمن كتابه (الشعر والشعراء) اخبارا ادبية عن حياة الشعراء وملأه بنماذج مختارة من اشعارهم وعرض فيه آراء العلماء في نقد هذا الشعر ولغته ومعناه وحدد بعض ملامح النقد الذي ساد عصره ، ونظام القصيدة العربية وعيوب الشعر القديم والحديث وقد تمثلت فيه وفي كتاب ابن سلام الاصول الحقيقية للادب وتاريخه على ان هذين الكتابين وان تشابها من حيث المنهج واتفقا من حيث الطريقة الا انهما اختلفا من حيث التمايز الشخصي والسلوك النقدي والانفراد في الابداع المنهجي . فأين قتيبة لم يسع الى استقصاء ذكر جميع الشعراء ولكنه لم يلزم نفسه بعدد معلوم ولم يحدد طبقة ولم يحصر فيها عددا من الشعراء وانما كان اكثر قصيده للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل اهل الادب والذين يقع الاحتجاج باشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله (ص) فأما من خفي اسمه وقل ذكره وكسد شعره وكان لا يعرفه الا بعض الخواص فما اقل من ذكر من هذه الطبقة[٦] .

---

(٦) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء /٥٩

وقد التزم بالترتيب الزمني في اغلب الاحيان وكان يخل بهذه الطريقة وفسح ابن قتيبة مجالا للمحدثين لانهم كانوا قد كثروا في زمانه واكتسبوا شهرة واسعة وصار الناس يسمعون لهم ويستسيغون اشعارهم • وقد اكد ابن قتيبة الحقيقة الثابتة التي ظلت تمسك زمام القياد النقدي وتوجه السلوك الذي يؤمن بالجودة في ذاتها بصرف النظر عن قدم قائله أو تأخره وان الملكة الفنية مقسومة بين عباد الله في كل دهر •

ولقد اخذ ابن قتيبة ظروف الواقع الادبي وتحسس القدرة التي يمتلكها النص والسلوك الذي يتميز به صاحبه بغض النظر عن الزمن وبذلك يضع هذا الناقد اسسا جديدة اخرى تضاف الى الاسس الاخرى التي توصل اليها ابن سلام •

ويمكن اعتبار كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز (٢٩٦ هـ) كتاب تراجم لشعراء محدثين ومنتخبات لاشعارهم وقد عاش هؤلاء الشعراء قبل زمن ابن المعتز ومدحوا أو اتصلوا بخلفاء بني العباس فسرد اخبارهم ونوادرهم كما حاول اماطة اللثام عن العلاقات القائمة بين كل شاعر وممدوحه مفصحا عن الاسباب التي ادت الى قول هذا الشعر(٧) وهو كتاب انفرد بتخصصه بالمحدثين الذين عاصرهم وكانت طريقته اكثر وضوحا واقوى بيانا مما ذكره ابن قتيبة لان الاخبار التي اوردها نادرة والاحاديث التي جمعها فريدة وطريقة المعالجة التي تعامل من خلالها كانت جديدة اذا قورنت بالطرائق التي استخدمها السابقون وهي ترسم منهجا جديدا وتحدد صورة متقدمة من صور التأليف التي برزت في هذا القرن الى جانب اختيار الاشعار النادرة من قصائد الشعراء التي شذت من دواوينهم وخلت منها كتب الادب ولم يعرفها اكثر الناس •

---

(٧) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء / ٥٨٣

ان هذه الكتب الثلاثة تضع اللبنات الاولى لكل الاتجاهات التي يمكن ان تأخذ دورها في وضع طريقة جديدة اذا اخذت بنظر الاعتبار الاسس النقدية والضوابط الفنية والمقاييس المختلفة التي تؤثر في النص وتوجهه الوجهة المطلوبة فتاريخ الادب لم يحدد في الموروث الادبي بكتاب واحد ولم تخصص له اطر ثابتة لان المسالك التي سلكها المؤلفون في التأليف لم تستهدف تاريخا ولم تكتب في ظل تفسير تاريخي محدد الابعاد وانما نشأت وفق الاسباب التي لازمت وجودها والخصائص التي فرضت استحداثها والعوامل المؤثرة في كل توجه من توجهاتها فالمجاميع الشعرية لها طبيعتها التي جمعت في دائرتها فكانت المفضليات والاصمعيات وكتاب الاختيارين وما لحق بهذه الكتب من مجاميع او دخلت في اطارها من دواوين . وقد اخذت هذه المجاميع منهجها في المراحل المتأخرة واستوعبت المضامين الاساسية التي دارت فيها محاولة اختيار القصائد كاملة في منهج منها واختيار اجزاء جديدة خاصة تمس غرضا محددا وتعبر عن فن من الفنون في منهج اخر والاكتفاء بابيات محددة تتضمن معنى من المعاني او تتعلق بظاهرة من الظواهر في منهج ثالث ومن هنا كانت كتب القصائد المختارة او الاختيارات وكتب المقطوعات التي عرفت بكتب الحماسة وكتب المعاني ، وهي كتب تجلت فيها قدرة الاختيار وبراعة الذوق وسمو التجاوز الذي حدد ابعاد الفن الادبي الى جانب الهدف الكبير الذي كان يدفع هؤلاء الباحثين من اجل الاحتفاظ بتراث الامة وتجميع قدرات ابنائها والانتفاع منها في بناء الحاضر واستشراف المستقبل وتوثيق تقاليد المجتمع وتأكيد العادات التي سادته ، وتثمين القيم الاصيلة التي حاول الشعراء ان يجعلوها طموحا لابناء الامة ونموذجا للاقتداء بها وسلوكا انسانيا يقتدي به ودعوة لكل الابناء الذين تربطهم بهذه الامة روابط الاتصال وتشدهم الى مستقبلها دواعي التحفز وتؤكد في وجودهم ذات الجماهير واملها وعزها وغدها وقد بقيت هذه المختارات اساسا من اسس التقييم الحقيقي في تصور الواقع العربي واحوال ابنائه ومؤشرا ثابتا من مؤشرات مسيرته الفكرية التي اعتمدت هذا الواقع وحددت اوضاعها من خلاله اذا

هيأت نفسها من أجل الملائمة التي تحقق للامة قدرتها على الاخذ والعطاء في ظل هذا الواقع وفي حدود هذا التناول وفي اطار التطلع الذي تنشده من اجل بناء مساهماتها الحضارية في المجرى العالمي للثقافة والفكر .

ان استثمار هذه الحقيقة والانتفاع من اوضاع هذه التجارب التي حددها الشعراء تشكل البناء الاول في رسم حدود تاريخ الادب وتضع الامة امام قدرات ابنائها الذين وضعوا انفسهم في موضع الاختيار وتمكنوا من استقطاب الشعور الحسي والواقع الاجتماعي الذي استوعبته الاغلبية الساحقة من ابناء الامة ووضعوه في هذه القوالب التي حفظته تراثا انسانيا خيرا ، وقيما اجتماعية مثلى وحدودا فكرية اخذت اشكالها في العلاقات واتسعت ابعادها في النفوس وترسخت قيمتها في التأمل والاهتداء .. فكانت الامتداد الفكري والحضاري لتاريخ الامة الطويل وكانت خلاصة صادقة من خلاصات الرواد الذين تمثلوا تجربة الماضي فاستوعبوها وعاشوا الحاضر فانتفعوا منه ونظروا الى المستقبل فوضعوا خطوطه وحددوا لكل الاجيال ما يمكن ان تأخذ به في مسيرتها .

اما في مجال اللغة فقد كان لتحرك القبائل العربية وهي تحرر الانسان وتنزع عنه ثياب العبودية وترفع عن كاهله اثقال الذل واعباء الخضوع والخنوع الاثر الكبير في توسيع الافاق الجديدة وتوسيع قاعدة الاستخدام ونشر الفكر العربي الانساني فتهيأت بذلك اسباب الاختلاط وتوفرت عناصر التمازج فتداخلت اللغة في المجال الثقافي عنصرا من عناصر التثقيف ووعاء من اوعية الفكر ، ووسيلة من وسائل الانفتاح الحضاري ومن الطبيعي ان تتعالى رسالة القرآن الكريم وهو يتلى بلسان عربي ولفظ عربي وقد اكد القرآن هذه الحقيقة فجاء فيه وهذا لسان عربي مبين (النحل/١٠٣) ونزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المُنذِرين بلسان عربي مبين (الشعراء / ١٩٥) وانا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (يوسف / ٢) وكذلك انزلناه حكما عربيا (الرعد/٣٧) وكذلك انزلناه قرآنا عربيا (طه/١١٣) و (قرآنا عربيا غيرَ ذي

عوج (الزمر / ٢٨) و (كتاب فصلت اياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (فصلت / ٢) و (كذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا (الشورى / ٧) و (جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون / الزخرف ٢) و (وهذا كتاب مصدقٌ لسانا عربيا / الاحقاف / ١٢) .

لقد اكد القرآن الكريم عربية اللغة التي تسود والزم كل المسلمين باستخدامها والقراءة فيها والتثقيف بلسانها والوقوف عند اسرارها التي تنبثق عن بلاغتها وفصاحتها وتتولد من تراكيبها والفاظها ومن الطبيعي ان يصيبها بعض اللحن وتتفشى فيها العجمة وتتداخل في الفاظها الرطانة وقد ادى ذلك الى انتشار الخطأ وشيوعه على السنة الناس ، وقد دفع ذلك العلماء من اهل العربية الى النهوض لرد هذه الموجة ووضع العلاج السليم لانهائها والقضاء عليها وازالة كل اثر من اثارها وقد اهتدوا الى جمع اللغة الصحيحة وتدوينها وحفظها فبذلوا جهودا محمودة في هذا المجال فوضعوا الصحف بين أيدي الناس لينهلوا منها الصحيح ويقوموا السنتهم بما يحفظونه من نصوصها ويتحدثون به من فصيحها ويعودون سليقتهم عليه ولم تخرج طريقة الجمع عن طريق الرواية عن الفصحاء والاخذ عن الاعراب ولم تتيسر لهم هذه الوسائل الا بالرحلة الى مواطنها والسماع من اصحابها الحقيقيين وتثبيت الالفاظ التي كانوا يأتون بها الى الحواضر لتجد مجالها في التعلم ودورها في الاعتماد وطريقها الى الكتابة وقد حفل القرن الثاني من الهجرة بهذه الحركة الواسعة وبهؤلاء الاعلام الذين وضعوا لهذه اللغة قواعدها ولتاريخها اصوله وطرائقه ولتطورها مراحله ودرجاته فكانوا من البناة والمؤسسين وكانوا من الرواد العاملين في عملية التأسيس الكبيرة التي هيأت لكل الدراسات مادتها وجمعت لكل الفنون ادواتها . وقد اخذت هذه الطريقة مناهج متعددة انصرف بعضها الى جمع النوادر والغريب واتجه البعض الاخر الى الاهتمام بالفصحى واتسعت قاعدة البعض الاخر فشقوا طريق المعاجم التي حققت اول عملية جمع لشوارد اللغة ولتجميع مفرداتها وتوحيد الفاظها واستقطاب ما قيل بشأن كل لفظة في مجال استخدامها الحسي والعقلي ..

لقد كان الادب رافدا من روافد تاريخ الادب وكانت كتبه تمثل القاعدة الاساسية في اغناء التاريخ . والادب بمفهومه العام عند ابن خلدون علم لا موضوع له ينظر اليه في اثبات عوارضه او نفيها ، وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به كلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثناء ذلك متفرقة يستقرى فنيها « الناظر » في الغالب معظم قوانين العربيه مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع في اشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله ان لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب واساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف ، (المقدمة / ٥٥٣) .

فالادب في هذا الحد يعني الثقافة ويشمل فروعها ويمتد الى كل ضرب من ضروبها لانه اداة من ادواتها وفرع من فروعها وصورة من صورها التي تستكمل بها وهو بالتالي الشعر والنثر واللغة والنحو وايام العرب واسابهم واخبارهم وسيرهم وتاريخهم وما وقفوا عنده من احوال وقالوا فيه من اشعار وتحدثوا به من احاديث وبذلك تجمع العناصر وتوحد الاسباب ومن اجل اتقان اللغة ودراستها واكتساب القدرة الكلامية في التعبير بفصاحة والنطق بسلامة وضبط الاحكام التي تؤدي الى الاحاطة بكل ما يتعلق بها ، ومن الطبيعي ان تدرس معها احوالها وبيئاتها وابداعاتها وانسابها وما قدم من خلال هذه التجربة ، وتمكن من تصوير ابعادها النفسية والاجتماعية ، الزمانية والمكانية ، الفردية والانسانية ، واذا كان ابن خلدون قد قدم هذا التعريف للادب فلم يكن تعريفه جديدا ، ولم يكن تحديده لهذه الاطراف التي ذكرها في سياق هذا التعريف مجهولة ، ولم يكن المهتمون بالادب قبل ابن خلدون غافلين عن هذه الحقيقة ولكن الذي فعله هذا المفكر هو استخلاص

الفكرة التي كانت تمارس في الواقع الادبي لاننا نجده يؤكد هذه الحقيقة في سياق حديثة عن الادب فيذكر اصوله واركانه (ويسميه الفن) ويحددها كما سمعها من شيوخه في مجالس التعليم باربعة دواوين هي ، ادب الكتاب لابن قتيبة (توفي ٢٧٦ للهجرة) وكتاب الكامل للمبرد (توفي ٢٨٤ للهجرة) وكتاب البيان والتبيين للجاحظ (توفي ٢٥٥) وكتاب النوادر لابي علي القالي (توفي سنة ٣٥٦ للهجرة) وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها[٨] وبعدها يعود الى كتاب الاغاني فيقول « وقد الف القاضي ابو الفرج الاصفهاني كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم وايامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتم استيعاب واوفاه . ولعمري انه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال .

ان هذا التصور للادب يمثل التوجه الحقيقي له منذ ان اخذت كتب الادب على عاتقها مهمة التدوين والتثقيف والتعليم وان المضامين التي وقفت عندها هذه الكتب هي التي حملت ابن خلدون على ان يوسع دائرة تعريفه للادب ويدخل فيه كل العلوم الادبية واللسانية والنقدية وما ساعد على نشوئها واثر فيها وشارك في تطويرها او استحدث في ظلها .

فكتاب البيان والتبيين للجاحظ يظل محتفظا بمنزلته الكبيرة واهميته العظيمة في التاريخ والادب لانه ظل معينا ينهل من حوضه كل الشاربين ويتزود من نبعه الصافي كل الباحثين الذين يريدون ان يكتبوا في باب من ابواب الادب او فن من فنونه . فالبيان والبلاغة موضوع اساس قام عليه الكتاب في وقت لم تحدد فيه ابعاد المصطلح البلاغي ولم تعرف حدوده التي دار في اطارها والخطابة موضوع اخر من الموضوعات التي عالجها الجاحظ واهتم بها ووقف عند محاسنها وعيوبها واشهر الخطباء واشار الى اقدارهم وعاداتهم واستشهد

---

(٨) ابن خلدون ـ المقدمة / ٥٥٣ ـ ٥٥٤

بفقرات مختارة في كل باب من ابوابها .. والشعر جانب ثالث وزعه في ابواب كتابه وتحدث فيه عن الشعراء وما يتصل بهم من قضايا ويساق في اخبارهم من احداث ويقال بشأنهم من احكام .

وعرض في ابواب مختلفة لجملة من الرسائل والوصايا والاقوال المأثورة عن فصحاء العرب وبلغائهم الى جانب الاستطرادات الكثيرة في الادب والتاريخ وفنون الثقافة الموزعة في كل باب ومثل كتاب البيان والتبيين تعالج الكتب الاخرى مثل كتاب ادب الكتاب لابن قتيبة والكامل للمبرد والنوادر لابي علي القالي التي حصرها ابن خلدون نقلا عن شيوخه واساتذته ، ومثل هذه الكتب كتاب الحيوان وعيون الاخبار والعقد الفريد وسائر كتب الادب الاخرى ، والتي استمر التأليف فيها قرون طويلة ، وهي لا تقل عن كتب المتقدمين اذا لم تكن قد اتسعت في الموضوعات التي عرضت لها كتب الادب الاولى ..

ان الادب في اطار هذه الكتب يمثل المعنى العام ويمتد الى الفنون المتصلة به والضروب المتممة لاغراضه والمعاني الدائرة في فلكه . وقد بقيت هذه التعريفات واضحة في كل تأليف ، مستمرة في كل تدريس وملزمة الكتاب والمفكرين بالاخذ بهذا المفهوم في التجربة والتطبيق والممارسة وموجهة الحركة الفكرية نحو الاهداف التي تحقق هذه الغاية حتى امتدت الى كل جانب ، واخذت كل طريق واستوعبت كل فكرة . فابن خلدون لم يطلق على المعارف هذا التعريف الا بعد ان ادرك الحقيقة التي تحملها مضامين الادب وتحتاج اليها عناصره ، وتحدد مساره ادواته المتمثلة في هذه المعلوم . وان عبارته المشهورة (الاخذ من كل علم بطرف) لا تعني اتساعا في مفهوم الادب او اصطلاحا جديدا في تحديد هذا المفهوم وانما هي استقراء شامل لمدلول عرف قبل ابن خلدون باكثر من ستة قرون ، وان هذا العالم قد استطاع ان يؤكده من خلال اهتمامه ويوضحه بعد ان وقف على كتب الادب واطلع على ابوابها وفصولها وما عالجته من موضوعات .

لقد تجاهلت كتب تاريخ الادب التي الفت في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن هذا الامتداد التاريخي لحركة الادب العربي وتجاهلت المجد الفكري الذي قدمته وهي تقطع مسيرة طويلة ، وتتزود بخبرة عالية ، وتجتاز عقبات صعبة واستطاعت ان تقوم عناصرها وتؤكد اصالتها وتبني اسسها وتضع المرتكزات الفكرية التي يمكن ان تقوم عليها حركة الادب ، وتسير بموجبها نماذجه المختارة ، وتحدد في ظل تطلعاتها الحقيقية الاشكال الادبية التي عاشت خالدة طوال القرون السابقة .. فاقتفى المؤلفون الخطوات التي اتبعها مؤلفو تاريخ الادب الاوربي واخذوا عنهم ما وضعوه لادبهم ، واستعاروا ما خصص لمذاهبهم الادبية ومدارسهم الفكرية ليلبسوه لنماذجنا ويحددوا بموجبه مسيرتنا وهي كتب كان القصد منها الغرض التعليمي الذي بدأت اصوله تتضح من خلال الانتشار الواسع الذي شمل التعليم ، وهي كتب كثيرة يمكن تحديد ملامح بداياتها عند ادوارد فانديك وفيليبيدس قسطنطين الذي وضع تاريخ العرب وآدابهم وطبع في بولاق سنة ١٨٩٢ . واعقبه مصطفى صادق الرافعي الذي الف تاريخ اداب العرب سنة ١٩١١ . وبدأت كتب تاريخ الادب تأخذ مكانتها في مجال التأليف حتى اوشكت ان تصل الى اكثر من خمسة وعشرين كتابا حتى سنة الف وتسعمائة وثمان وثلاثين وقاربت ضعف هذا العدد في السنوات الاخيرة وهي محاولات ، كانت تدور في اطار الفكرة القديمة وتتجاوزها في بعض الاحيان في مجال التقسيم الداخلي او التوزيع الفني او الجانب التخصصي الذي يفرد بابا لمجاميع الشعراء او يحدد فترات زمنية فيها بعض الامتداد او الاختزال او تقف عند بعض المظاهر التي تراها بارزة او متميزة .. ومن الطبيعي ان توحي هذه الطريقة للدارسين بما يؤكد تجزئة الادب وفصله عن مقوماته ، وتجريد شعرائه عن عوامل التأثير وابعاد اغراضه عن دوافعها الحقيقية وايقاف تطوره عند حدود النص الشعري او النثري او قطع اصوله الممتدة في كل باب ، وقد الحقت هذه العملية بهذا التكوين التراثي للامة مظاهر الضعف وعوامل الهزال فتركته يدور في تلك الحلقات المحددة ويتحرك في مجال الحدود المرسومة وينتهي عند نهايات مقطوعة تمنع عليه

الامتداد الفكري الذي حققه في كل عصوره وتوقف شموخه الانساني الذي لم يعرف عصرا بعينه ولم تتجمد في عروقه دفقات الحس الوجداني الذي ظل نبضا حيا من نبضات الاقتدار والتطلع والتمكن .

لقد حاولت هذه الكتب ان تعالج الظواهر وتوزع العصور وتختزل الاسماء وتحدد المؤشرات ، وهي محاولات كانت في اساسها مقتصرة على مراحل التعلم الاولى ومنسجمة مع الحركة العلمية التي كانت تشهدها الامة في بداية استعادتها لمقوماتها ، واولية امتلاكها لبعض ما كانت تسعى اليه من حقوق وكان لابد لهذا الاتجاه ان يأخذ شكلا جديدا وصورة تتماشى مع الواقع الجديد بعد ان اتضحت معالم الصورة الادبية ، وتحددت الخطوط الاساسية في البناء الثقافي الذي بدأت تتحسسه الامة وهي تحث الخطى في طريق التحرير وتتقدم في مسيرة البناء ، وتسرع في توحيد الفكر وتتبنى كل الخطوات التي تشارك في ترسيخ قواعد الامة وتثبيت دعائم استقلال الشعب وتحرير الثروة الوطنية وكانت جحافل المثقفين من الابناء الغيارى يتبارون في استنهاض الامة ويسعون من اجل استعادة مجدها الزاهر ، وعزها الذي رانت على صفائه غشاوة السنين الثقيلة ، وفكرها الذي غشيته رواسب التخلف والتجزئة . ان هذه البوارق المشعة التي نشرت ظلها في النفوس ، وتنوعت ممارستها في التطبيق وازدهرت افكارها في اللقاءات والندوات والمحاضرات كانت صورة من صور استجلاء الحقائق التي تدخل في نظرية الادب وماهيته وجوهره ووظيفته وعلاقته بالمجتمع وتتسرب في حقول المعرفة الانسانية لتزدهر فكرا وتتماثل وعيا انسانيا وتتجلى حركات ادبية موجهة .

لقد اثرت حركة البعث القومي والدعوة الى الاستقلال والصراع الحاد الذي استقطب الاتجاهات الادبية التي حملها المثقفون العرب في البنية الثقافية والنضوج الفكري ويسرت لها سبل الاتصال بعد ان توفرت لها وسائل النشر وتعددت منافذ التداخل ، وقد ادى ذلك الى الاهتمام بالفكر والاعتناء بالادب وبدأت بوادر حركة تقييم واسعة تأخذ مجالها في هذه الاوساط من اجل

ازدهار هذه الحركة كما صاحبها اهتمام كبير بدراسة الادب القديم والاعتناء بدراسة الادباء وقادة الفكر ، واختلفت المناهج وتعددت وسائل الدرس بعد ان اخذت العلوم الحديثة وخاصة علم النفس طريقها الى دراسة الادب ونقده

ان هذا الواقع الثقافي الذي كان يملأ الساحة العربية في هـذه الفتـرة ويأخذ بزمام بعض الحركات الادبيـة كان يلـزم المعنيين ان ينصرفـوا الى استشراف النظرية الجديدة التي تنبثق عن هذا الواقع وترتبط بالواقع الادبي الذي قطعته مسيرة الثقافة ، ويتأملوا في واقع الحركة الثقافية التي بدأت تتضح ملامحها بشكل جلي ليرسموا الطريق السليم ويحددوا الخطوات الموجبـة ويبعثوا في هذا الموروث الذي يشمل كل جانب من جوانب الحياة ويحمل كل المعطيات التي عاشتها الامة الحياة ثانية وفق المعايير الجديدة والخصوصيات التي امتازت بها لتكون هذه القنوات قنوات انسانية مترعة بالخصب غنيـة بالعطاء ، قادرة على تزويد كل الاتجاهات بما تحتاج اليه ، لقد كانت نـوازع الامة توجب على المثقفين من ابنائها ان يدركوا المرحلة التي كانت تمر بها من اجل تحمل المسؤولية الكبيرة في استنهاض العزائم واسـتثارة النـوازع واستقطاب التجارب الحية التي تمثلتها فنون الادب وافرزتها طبيعة الاحداث وتناولتها اقلام المفكرين وبالتالي اعادة تقييمه وفق الاحتياجـات الجـديدة والتصورات الفكرية المناسبة .. فالادب ظل يمثل تراث هذه الامة وما حققه عبر عصورها المختلفة وقد تمثل في الشعر الوفير الذي حفلت به الـدواوين الضخمة والمجاميع العديدة والمختارات المتناثرة والنثر الذي حفلت به كتـب الادب وتوزعته الاسفار الكبيرة التي زخرت بكل لون من الوانه الواسـعة فشكلت المثل والحكاية ، والخطبة والمقامة ، والسيرة والترجمة ، وهي ابواب اخذت مواقعها في ادب الامة ، وجددت مواقعها في تراثها الخالد . اما الاصناف الاخرى فكانت لها مجالاتها في كتب الادب والتراجم والتاريخ والبلـدانيات ولم تخلو منها المعاجم التي اتسعت لكل حالة واستوعبت كل صنف .

ان الشمول الثقافي الذي عرفت به الحركة الادبية استطاع ان يتسع لكل علم ويمتد الى كل فن فكانت كتب الطب والبيطرة والفلك والرياضيات والزراعة والنبات لوحة ادبية الى جانب الطابع العلمي الذي تميزت به والمنهج المنظم الذي اتبعه المؤلفون وهم يكتبون هذه المؤلفات ويعدون هذه الاسفار التي ظلت تحمل التجربة الغنية وتؤدي المهمة العلمية التي اضطلعت بها • وفي تراث الامة تكمن الروح التي حفظت كيانها ووحدتها وفي تراثها تتجلى شخصيتها المتميزة ، واصالتها التي عاشت وجودها وادركت قوتها ، وتمثلت فيها قدرة وصمودا ووجودا ، وتألقت حسا ووجدانا وانسانية • وقد تجسدت هذه الروح في القيم والعادات والتقاليد والطموحات ، والاهداف المشتركة والالام وارتسمت في صور النكبات التي تعرضت لها والازمات التي احاقت بها وقد بقيت عوامل الاثارة تثير في الامة نوازع التطلع وتلهب عوامل الاحساس التي كانت عاملا من عوامل التماسك واداة من ادوات الوحدة وقدرة من قدرات الابداع وكان الادب في كل هذه الحالات وسيلة التعبير والمشاعر وصورة الاحساس بالتمثيل الحي الذي كانت ملامحه تعلو كل شكل وتتجسد في كل تعبير ، وترتسم على كل وجه • ومن الطبيعي ان تتشعب طرق التعبير عن روح الامة بما يكفل لها البقاء ويضمن الخلود فكانت اللغة والشعر والنثر بانواعه مجالا من مجالاتها وتيارا من تياراتها • اما الاوجه التي كانت تتوزع من خلالها فقد تمثلت في التعبير عن محيطها الواسع وطبيعتها الحية وغير الحية وقد اكد الانسان العربي ارتباطه بالارض والتماسه خيرها الواسع وادراكه لما يعنيه هذا الارتباط ، وما يمكن ان يؤديه ابتعاده عنها من خلال اساليبه وطرق تعبيره وفي التعبير عن حركتها الاجتماعية وما امتازت به من تغير وحركتها السياسية وما عرفت به من صراع ، وحركتها الفكرية وما برزت فيها من تأثيرات واستوعبته من بدائل جديدة ، وتمثلته من اهداف •

لقد كانت المساحة التي تحرك عليها الادب واسعة ، وكانت الارض التي زرعت عليها فنونه حافلة بكل ما يعطيها قدرة الامتداد والتدفق والانتشار

والابداع وكانت طبيعته متصلة بكل ما يعينها على الاتصال بعناصر الادب والتأثر بمعطياته الانسانية ، وكان اصحابه قديرين على اتقان فنونه ومدركين لكل ما يتعلق به من فلسفة وعلوم وسياسة وحكمة وحريصين على معرفة التاريخ وتقويم البلدان وهذا ما جعلهم يتركون تراثا خالدا • ومن هنا كان تاريخ الادب لا ينحصر في اطار الادب وانما يتسع ليؤرخ لكل شيء وليعين القارىء على كل شيء لان حياة الانسان ليست منفصلة وان محاولة دراسة كل جانب من هذه الجوانب انما هو محاولة لاستكمال الصورة واستيعاب الابعاد المؤشرة فيها وهو ثمرة من ثمار البحث الذاتي الذي يعتمد المؤشرات المختلفة التي ظلت تأخذ مداها في كل نص وتحدد اجزاءها في كل صورة •

ان المنهج الذي يمكن ان يرسم لتاريخ الادب لا يمكن ان يكون بعيدا عن الصورة القديمة التي عرفها هذا العلم ، والاطار العلمي الصائب الذي حدد الاشكال التي يمكن ان تدخل فيه ، فهو علم يشبه العلوم الاخرى التي عرفها العرب وهو فن لا يختلف عن الفنون الاخرى التي ظلت نتيجة من نتائج البيئة العربية والتي ادركت الاثر الزماني والمكاني المؤثر فيها وتحسست قدرة الفرد والجماعة وما يمكن ان تضيفه الى العمل الفني وتقدمه من اجل ابراز النص بالشكل المتميز ، الى جانب الموهبة التي يكتسبها الفرد ويحاول رعايتها ويؤكد اهميتها وهو يمدها بكل ما يجعلها قادرة على الممارسة •

فالقصيدة او النص او المقامة او الحكاية اخذت حجمها في عصرها واكتسبت لونها المميز في بيئتها ، وادت دورها في مجالها ، ومن الطبيعي ان تترك اثرها في النفس ودورها في المجتمع وشكلها في الاطار السياسي من خلال التأثير المباشر الذي تتركه في كل محيط ، ولابد ان تختلف اثار هذا النص من حيث الابداع والبراعة وان هذا الاختلاف هو الذي يحدد عمق تأثيره ، وابعاد استمراره واسباب خلوده •

ان هذه المحاولة الى جانب محاولة التحليل التي يمكن ان تتم في ضوء افضلية النص وتشخيص العناصر البارزة فيه ، ودراسة ذلك دراسة دقيقة وتحديد الملامح الجديدة وما يطرأ عليها من تغير ويصيبها من تطوير ويتعرض لها من تجديد ويتولد عنها من مظاهر .. ان هذه المحاولة هي التي تشكل الدائرة الكبيرة في مجال المنهج المطلوب مع الاهتمام الجدي بالطبيعة التي يلتزم بها النص والوجهة التي يبغيها والعوامل التي تختفي وراءه وهي المحاولة التي تترك مسؤولية النص قائمة ، وتعطي هذا التاريخ دوره الفاعل واهميته المطلوبة ، وبذلك نستطيع الوقوف على الصورة الكاملة للادب وتاريخه . والنص ومكوناته وهي محاولة يمكن ان تضع القاعدة الاساسية لهذا الموروث الذي ظلت اجزاؤه متباعدة ، واوصاله ممزقة .

ان محاولة تطبيق هذا المنهج لا يمكن ان تكون بعيدة عن محاولة استبطان الجانب النفسي الذي استجابت له نوازع النص والجانب الاجتماعي الذي تحركت في اطاره عناصره وما يمكن ان تضيفه هذه الجوانب من تفسيرات وتثيره من تساؤلات ، وهي تحدد خطوط سيرها وتكتسب الوان اتجاهها في هذه العناصر .

ان حركة الاحياء التي شملت اصناف الادب وامتدت الى كل فن قد مهدت الطريق امام حركة كتابة تاريخ الادب بما يضمن لهذا العلم اصوله ، ويحقق له دوره في الحياة ويؤكد اهميته بالنسبة للدارسين الذين ظلوا هذه الفترات الطويلة يدورون في المجال المحدد ، ويتيهون في اعقاب المدارس والاتجاهات ويقعون في دائرة السقوط الضائعة .

ان مجال اعادة النظر تدعونا الى وضع هذه الحقيقة امام الدارسين من اجل التحرك الجدي ، والاندفاع المسؤل لتأخذ هذه المسألة دورها في البناء ولتكون مجالا لكل الباحثين لوضع خبراتهم في ميدان التطبيق ودراساتهم في اطار العمل المثمر .

ان تاريخ الادب هو تاريخ التجربة التي تمر بها الامة ، وان تدوين هذه ، التجربة واستجلاء العناصر التي تحكمت فيها ، والتأثيرات التي كونتها تمثل المنطق الاساس في بناء الشخصية السليمة ، وتعطي البعد الحقيقي لكل توجه يمكن ان تتوجهه الامة في ظل التحليل الصائب لعناصر التجربة وفي أطار الاستعداد لتخطي كل المراحل التي عانت منها هذه الامة او حالت دون استكمال خصائصها الطبيعية فالادب والتاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس وغيرها من العلوم اصوات مرتفعة في التكوين الثقافي والفكري والانساني وعلامات واضحة في تشكيل البنية الانسانية التي تحدد الغايات التي تتوخاها الامة في مسيرتها وهذا يعني ان كل تحرك في هذا الجانب هو هو تحرك من اجل استجماع العناصر التي تعطي الامة صورتها وتكشف عن غايتها في المستقبل الذي تسعى اليه • وان تاريخ الادب في هذا التحديد يشكل الاطار العام الذي يلم اجزاء التجربة ويجمع عناصرها ويوحد اهدافها • وان اعادة النظر في طريقة كتابته وتقييم الصورة التي سار في ظلها وتشخيص عوامل الضعف التي اسقطت مهمته تشكل المرحلة الاولى التي توجب على كل الباحثين الاهتمام بها والوقوف على اسباب تخلفه • وان هذه الاعادة تحتم عليهم ان يعيدوا النظر في الطريقة الجديدة التي تعيد اليه فاعليته وتعطيه الاهمية التي يستحقها وهو يؤرخ لموروث الامة ويسجل احداث وجودها ويقيم عناصر تجربتها وفق الواقع الراهن الذي تحياه وفي اطار الخصوصية القومية التي تكاملت في بناء شخصيتها وقيمها وتقاليدها بعيدا عن القوالب الجاهزة والنظريات الغريبة •

لقد ظل تاريخ الادب العربي قاصرا عن استيعاب تجربة الامة ، وغير قادر على تحديد تطلعات ابنائها بسبب الاطار الجاهز الذي ادخل فيه والنظرية البعيدة عن واقعه التي فسر في ضوئها ، وقيمت احداثه من خلالها ودرست اغراضه في ضوء تحليلها ، وقد جر ذلك على الادب اعباء ثقيلة افقدته قدرته على العطاء واطفأت في عيونه كثيرا من الشموع المتألقة والوت في ظل التجاوز

روائع فنه الخالدة حتى غدت فنونه خاوية ، وتجاربه محدودة وابداعات شعرائه وكتابه ومفكريه مقتصرة على نفر محدود .

ان الاطار النظري الذي حددت بموجبه قدرات الرواد من المفكرين والادباء قد تركت اثرها الواضح في الدراسات الادبية ووجهت في ظل تفسيرها حركة الادب توجها لا يخدم الامة في مرحلتها الراهنة ولم يترك لابنائها ما يحملهم على الانتفاع من هذا الموروث الواسع الذي تحمل مضامينه القدرات الخلاقة والقيم الاجتماعية الاصيلة والنماذج البطولية الخالدة الا بالشكل الفردي والنطاق الضيق .

ان محاولة تحديد منهج جديد لكتابة تاريخ الادب بما يعزز الايمان بارادة الامة وقدرتها على الانبعاث ويرفد حاضرها ومستقبل اجيالها بتراثها المجيد ويعمق اعتزاز ابنائها بالمشاركات المبدعة والمساهمات الخلاقة لامتنا العربية في صنع الحضارة الانسانية اصبحت ضرورة لازمة ، ومهمة قومية تستنهض كل الدارسين وتهيب بكل ذوي الاختصاص من اجل اعادة النظر في هذا الموروث الواسع من اجل التوجه التقدمي لبناء غد افضل ومجتمع اشتراكي موحد تتعاون فيه كل القدرات وتتوحد في ظله كل القابليات .